15

الانسلاخ عن الواقع

تم الإعـلان عـن بدء المؤتمر نحـو الساعة الخامسـة صباحاً من يـوم الثلاثاء الواقع في الثلاثـين مـن شهـر آب، أغسطس، سنـة 2005. كنت قد استيقظت قبـل ذلك بفترة وجيـزة لأن النوم جفاني. وصلنا إلى كاليفورنيـا قادمين من تكساس قبل يوم واحد حيث أمضى الرئيس كعادته الجزء الأكبر من شهر آب، أغسطس، وهو يعمل من بيته في مدينة كروفـورد. وكالعديد مـن أركان المرافقين، كان مـا يزال على توقيت وسـط أمريكة. أتى الرئيـس إلى مدينة سان دييغو، لإبداء بعض الملاحظـات بمناسبة إحياء الذكري الستين للانتصـار على اليابان وذلـك ضمن كلمة يلقيها أمام مجموعة مـن المتقاعدين، ورجال البحرية، وقوات من العمليات الخاصة، وضباط من القوى البحرية، والبحارة، والملاحين العاملـين في القاعدة الجويـة في الجزيرة الشمالية. الوزير رمسفيلـد الذي كان مسافراً بشـكل منفصل، كان هناك أيضاً. بعد ذلك، كان جدول الرئيس يتضمن زيارة إلى بعض الجرحـى من رجال البحرية في المركز الصحي القريـب قبل العودة إلى كروفورد لقضاء الأيام القليلة الباقية من الصيف هناك.

كانـت إحـدى المزايـا القليلة التي نتمتـع بها عندما نكـون ضمن الطاقـم المرافق للرئيـس، أو «طاقـم الطريق» كما كنا نطلق على أنفسنا، تتمثل في الإقامة معه في أحد الفنـادق الفخمة. في هذه الرحلة، كانـت غرفتي في فندق ديل كورونادو التاريخي وهو فنـدق خمسـة نجوم يقع علـى شاطئ ديل مـار في مدينة سان دييغـو - على بعد عدة غرف من الجناح الذي يقيم فيه الرئيس.

كانـت الرحلـة إلى الغرب قـد تم التخطيط لهـا وإقرارها منذ مدة طويلـة. ولم يكن أحـد يتوقع حينها أنهـا ستصادف عطلة نهاية الأسبوع الذي سيضرب فيه إعصار كارثي الولايـات المتحدة. كان من الصعـب تصور حجم التأثير الذي سيحدثـه إعصار كاترينا

بقوته التدميرية التي ستغطي أكثر من 90،000 ميلاً مربعاً. وكان الهدف من الدعوة إلى المؤتمر صباح هذا اليوم وضع بعض كبار أعضاء طاقم الرئيس في آخر مستجدات الوضع الحالي في أعقاب الإعصار، وأهم من ذلك، وضعهم في صورة خطط الرئيس الآنية.

علمنا منذ مدة أن الإعصار سيكون شديداً، وأن نتائجه ستكون سيئة. وكان الرئيس قد اتخذ خطوة غير اعتيادية تمثلت في إعلانه ولايتيْ لويزيانا ومسيسبي منطقتيْ كوارث وذلك يومي السبت والأحد السابقيْن على التوالي وذلك قبل أن يضرب الإعصار. (جاء هذا الإعلان استجابة للحاكميْن كاثلين بلانكو وهالي بربور، وكانت الإدارة على اتصال بهما؛ ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن كلفة الاستعدادات للطوارئ التي قامت بإعدادها الولايتان يمكن أن تعوضها الحكومة الفيدرالية بعد انحسار الإعصار.) تم اتخاذ إجراءات أولية قاسية جداً صبيحة يوم الأحد بما في ذلك إصدار أول أمر بالإخلاء القسري في تاريخ نيو أورلينز، أصدره عمدة المدينة راي ناغين (سبق للرئيس أن حثه على القيام بذلك في اتصال هاتفي).

ومع ذلك، وبمرور الوقت، تواردت أنباء أكثر سوءاً. من هنا برزت الحاجة للدعوة إلى عقد هذا المؤتمر.

هناك في واشنطن، كان دان بارتليت هو الذي اقترح إجراء هذه المكالمة عن طريق نظام الاتصال في البيت الأبيض، وهو نظام خدمة اتصالات عسكري يدار بواسطة عامل المقسم؛ وهذا النظام مخصص لقضايا الأمن القومي وكبار الموظفين من أعضاء وكالة الاتصالات التابعة للبيت الأبيض، ويقدم تسهيلات كاملة في مجال الاتصالات بالرئيس، ونائب الرئيس، ومجلس الأمن القومي، والأمن السري، وكبار موظفي البيت الأبيض، بما في ذلك الاتصالات الآمنة وغير الآمنة. من بين الموصولين بهذا النظام، كان رئيس أركان البيت الأبيض، آندي كارد الذي كان يقضي إجازته في ولاية مين، ونائب رئيس الأركان لشؤون السياسات، كبير المستشارين كارل روف، وبارتليت، وجو هاغين، نائب رئيس الأركان لشؤون العمليات، وأنا. كنا، هاغين وأنا، مسافرين مع الرئيس بوش. ومن

بـين مهامه الأخرى في البيت الأبيض كان منصب ضابـط الاتصال الداخلي للتنسيق مع المسؤولين في الإدارة الذين يتولون مهمة التحرك في حال حدوث كوارث طبيعية.

بالعودة إلى تلك المرحلة، أذكر أنني لم أكن في أحسن أحوالي. فمنذ بضعة أسابيع قبل ذلـك، تعرضت للتشهير بدعوى أنني زورت الحقائق عبر تأكيدي على أن كارل روف ليس متورطـاً في تسريـب هوية فاليري بليـم. ونتيجة لذلك، تلقت مصداقيتـي بوصفي ناطقاً باسـم الرئيـس ضربة موجعة، وهو مـا كان يتم تذكيري به، ويضغط علـيّ بشكل متزايد عندمـا أكون على المنصة في قاعـة اللقاءات الصحفية في البيـت الأبيض، عقب الكشف عـن الحقيقة مباشرة. استهلكتني هـذه الأحداث نفسياً بشكل هائل، وشعرت بحاجة إلى أخـذ إجازة من جوواشنطن - بعيداً عن زملائـي، وبعيداً عن الأضواء؛ كنت بحاجة إلى وقت أخلد فيه إلى نفسي كي أرتاح مما كنت أعاني منه. ولذلك أخذت إجازة لبضعة أيام وسافـرت مع زوجتي جيل إلى مخبأ بعيد منعزل في ولاية كارولينا الشمالية، وأخذنا معنا كلبينـا. ومع ذلـك، فقد كنت ما أزال أشعر بالوهن وبقليل مـن الإحباط، في الوقت الذي بدأ ذلك الأسبوع المشؤوم.

قبـل أن أستحـم أو أحلـق ذقني، وكنت مـا أزال أرتـدي قميصي القصـير الأكمام، وسروالي القصير، بـدأت أتنقل بين البرامج الإخبارية الصباحية. ذكرت الصحف التي تم إيصالها إلى بابي أن مدينة نيو أورلينز قد نجت على ما يبدو من ضربة كارثية، إلا أن مراسلـي البرامج الصباحية المتواجديـن في ذلك المكان كانوا ينقلون أخباراً عكس ذلك. كنت مـا أزال بانتظار ملخص عن التقرير الصباحي اليومي الذي كان سيتضمن تقريراً عن وضع الإعصار كاترينا من الداخل، وذلك من غرفة العمليات في البيت الأبيض.

رن جرس الهاتـف. كان دان بارتليـت وأنا، أول من تم ربطهمـا بنظام الاتصال. وفي الدقائـق التـي سبقت ربـط الآخرين بالنظام المذكـور، أطلعني دان باختصـار على آخر المستجـدات ممـا عرفه عن الوضع. قـال دان: «إن الوضع سيء. وهـو أسوأ مشهد يمكن أن يحـدث لنيـو أورلينز. لحق الدمار الكامل بأغلبية مناطـق ساحل الخليج، على امتداد الجنوب الشرقي لولايتيّ لويزيانا والميسيسيبي أيضاً.

لكن أكثر خبر إثارة للصدمة كان يتعلق بالدمار الذي أصاب مدينة نيو أورلينز. فأغلبية مساحة المدينة تقع تحت مستوى سطح البحر، وهي منخفضة على شكل وعاء تحيط به حواجز وجدران صد للفيضانات. كان إعصار كاترينا من الدرجة الثالثة ترافقه هبات إعصارية تبلغ خمسة وعشرين قدماً في الوقت الذي كانت عين الإعصار على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من المدينة. وقد ازداد اتساع عرضه وهو يقترب من الشاطئ، بالإضافة إلى أن سرعة رياح هذا الإعصار تجاوزت 103 أميال من المركز. وقد علمت الآن أن الحواجز قد تم تخطيها، وهذا يعني أن مياه الفيضان لن تنحسر في مدة قريبة.

تم وصل أعضاء فريق بوش بالنظام واحداً إثر آخر. لم نطلع على تقرير مفصل حول الوضع؛ جميعنا سمع كيف أن الحال أصبحت أكثر سوءاً، إما عبر الصور والتقارير الواردة من شاشات تلفزيوناتنا، أو من التقارير الداخلية الصادرة عن البيت الأبيض. علمنا أن إعصار كاترينا تسبب في خسائر جسيمة وأحدث دماراً شاملاً، واجتمعنا على رأي يقضي بأن على الرئيس العودة إلى واشنطن في أقرب وقت ممكن.

كانت الخطة التي وضعناها تقضي بأن يعود الرئيس فوراً إلى مدينة كروفورد، وذلك بعد زيارته الصباحية للقاعدة البحرية وللمستشفى. وهذا سيوفر الوقت للجميع في حاشية الرئيس كي يحزموا أمتعتهم مساءً في ولاية تكساس، ويعودوا إلى واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكن بالعودة إلى تلك اللحظة، يمكن القول إنه كان من المستحسن لو عدنا مباشرة إلى واشنطن. إلا أن أحداً لم ينتابه إحساس بأن العودة بهذا الشكل اللولبي ستكون له أي آثار سلبية طالما أن الرئيس على اطلاع كامل على كل شيء، وطالما أن الشعب يعرف أنه قطع إقامته في تكساس لهذه الغاية.

سأل كارل روف: «هل يمكن لنا ترتيب رحلة استطلاع جوية للرئيس في طائرة الرئاسة؟ يجب علينا إطلاعه على الدمار الذي لحق بمدينة نيو أورلينز، وعلى امتداد ساحل ولاية الميسيسيبي وولاية ألاباما وهو في طريق العودة إلى واشنطن». كالعادة، كان روف يفكر من منطلقات سياسية. هذه كانت وظيفة روف، ولم يكن أحد آخر باستطاعته أن يجيدها بالدرجة نفسها. كان منطق تفكيره في هذا الوضع جلياً: التحليق فوق هذه المنطقة المنكوبة سيعكس على الأقل قلق الرئيس واهتمامه بالوضع.

كانـت تقديـرات روف الفطرية حول موضوعات كهذه تصيـب هدفها عادة، لكن هذا الاقتراح أشعرني بالضيق. لم ترق لي الفكرة، ولذلك فقد سارعت إلى القول: «أعتقد أن هـذه فكرة سيئة» مؤكـداً «أنه سيكون على ارتفاع عشرة آلاف قدم في الجو؛ ينظر من عَلٍ إلى النـاس الذين يتم إنقاذهم من على أسطح المنـازل. سوف يكون ذلك بمثابة انسلاخ عن الواقع، وانعزال عنه. وإذا كان لا بد له من الذهاب، فليكن ذلك على الأرض مختلطاً بالناس الذين يعانون من هذا الإعصار بشكل مباشر».

أضفـت قائلاً: «أو ليكـن هذا الاستطلاع في رحلة بطائـرة هيلوكبتر، هذا إذا لم يكن باستطاعتـه أن يكون علـى الأرض؛ وإذا لم يكن بإمكانه القيام بذلك أيضاً، فمن الأفضل له العودة مباشرة إلى واشنطن من دون أن يطير فوق المنطقة المنكوبة.

أضـاف بارتليت علـى الفور: «أنـا موافق»، ولم يعترض أحد على ذلـك. شعرت بأن القضية طويت: لن يكون هناك طيران لتفقد الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا.

كنـت واثقـاً جـداً من أننـي كنت محقـاً في رأيي، ومـن ردة فعلي الفطريـة حول هذا الموضـوع. تذكرت أنني عندمـا كنت صغير السن، كنت برفقة والدتـي، التي كانت عمدة مدينـة أوستن، في الزيارة التـي قامت بها شخصياً إلى المناطق التـي ضربتها فيضانات مدمـرة. كمـا تذكرت كيف قمت أنا وجـو هاغين قبل سنة مـن الآن، بمرافقة الرئيس في الزيـارات الأربـع التي قام بها إلى فلوريـدا خلال عدة أسابيـع، وكان يزورها في كل مرة حدث فيها إعصار كبير تسبب في تهديم المنازل وإلحاق الضرر بالممتلكات.

كان الرئيـس يستوعب دوره بصفته قائداً لحملة التخفيف من الآلام في أوضاع كهذه، وكان يـؤدي هذا الدور ببراعة ملفتة، وهو يبدي اهتماماً حقيقياً وتعاطفاً مع ضحايا هذه الكوارث. كان يسير مترجلاً في جولات على المناطق المتضررة، ويشاهد بأم عينيه الدمار الـذي لحق بالمنازل، ويخفف عن آلام العائلات المنكوبة مقدماً الدعم لها. وكانت زياراته إلى ولاية فلوريدا تتضمن رحلات جوية بطائرة الهيلوكبتر برفقة الحاكم (شقيقه جيب)، وبعض المسؤولين الآخرين، وذلك لكي يكون بمقدوره مشاهدة الدمار عن كثب. ولقد تفهم

هاغين هذه العملية بشكل جيد، وكان يتصرف دائماً على أساس التخطيط لأحداث كهذه تبعاً لهذا الفهم.

بالمقابل، كان التحليق لمشاهدة آثار الإعصار، كاترينا من على متن أكثر طائرات العالم ترفاً وتميزاً وهي طائرة الرئاسة من طراز بوينغ 747، سوف يطبع في عقول العاملين في الصحافة والناس عموماً صورة عن رئيس لا مبالٍ ومتحجر القلب. وطالما أنه ليس في برنامجنا أن نحط على الأرض، فقد شعرت أنه من الأفضل لنا العودة إلى واشنطن العاصمة، ونبدأ عملية الإشراف على عملية الطوارئ من هناك.

لذا، كان من دواعي سروري أن أتلقى تأكيدات بواسطة نظام دارة الاتصالات أنه لن يكون هناك تحليق لطائرة الرئاسة فوق المناطق المنكوبة. ولكن، ولسوء الحظ، يبدو أنني تسرعت جداً في قبول هذه التأكيدات.

انتهت هذه المحادثة بعد وقت قصير، في الوقت الذي كانت تناقش فيه الخطط النهائية. قلت: «في أول نشاط لي هذا الصباح، سوف أخبر الطاقم الصحفي المرافق عن التغيير في خطة الرحلة. سوف أخبرهم أن هناك رحلة محتملة إلى منطقة ساحل الخليج بنهاية الأسبوع. وسوف أخبر الصحفيين أيضاً عن آخر المستجدات التي يحاط بها الرئيس علماً، وأن من المحتمل أن يشارك في مؤتمر بالدارة المغلقة صباح غد من مزرعته».

كان الجميع سعداء بهذه الخطة.

لكن الرئيس بوش كان يسبقنا بخطوة واحدة. عندما انتهى الاتصال، وتوجه هاغين إلى إطلاعه على ما توصلنا إليه من أفكار، تحدث الرئيس أولاً. أبلغ هاغين أنه قرر أن من الضروري العودة إلى واشنطن. بدأ كامل أفراد الفريق المرافق بالإعداد للسفر، وكان عليهم البدء في مشهد مرتجل في حفلة الرقص المعدة بعناية، والتي نطلق عليها تسمية «الرحلة الرئاسية».

ركزت بصفتي سكرتيراً صحفياً على الحكاية التي سردناها أمام وسائل الإعلام الإخبارية حول ردة فعل الرئيس على إعصار كاترينا. كنت أعلم كم كان ذلك مهماً.

كانـت الكوارث الطبيعية تُعتَبَرُ على نطـاق واسع، امتحاناً للزعامة الرئاسية. فالصحافة والنـاس يريدون رؤيـة رئيسهم وهو يتصرف بحـزم مستخدماً سلطاتـه كافة في أعقاب حدوث الكارثة مباشرة. كما يتوقعون قيامه بزيارة المنطقة المنكوبة بأسرع ما يمكن، حيث تستخدم الصحافة هذا الفعل من الرئيس كمقياس لاهتمامه بما يجري.

تعقـد الوضـع الحالي بسبب أن الرئيس «يمضي إجازتـه حالياً في كروفورد» حسب ما أكدته الصحافة؛ وهو ما كان منتقدونا يستخدمونه بشكل منتظم للإشارة ضمناً إلى أنه غير مكترث بالموضوعات المهمة. ولكن بصراحة، وبحكم كوني أعيش الواقع من الداخل، أنا أعتبر أن هذا التأكيد خارج السياق، ومناسباً لأن يكون سردية مُرْضية سياسياً لا أكثر ولا أقـل – خصوصـاً عندمـا تظهر مشكلة مـا، فجأة في مكان ما، مـن العالم، كما حدث هـذا الأسبوع. فالرئيس لا يكون أبداً في إجـازة. يمكن أن يذهب أحياناً إلى مكان ما، كي ينفـس الضغط الذي يكاد يطبـق عليه، ويصفي ذهنه، ويهرب مـن المعمعة في واشنطن؛ لكنه لا يعطي نفسه إجازةً ليوم كامل أبداً، وخصوصاً في عصر تقانة الاتصالات المتقدمة التـي نعيشهـا اليوم. فكل شيء، أو كل شخص يحتاج إليه، هـو إما معه، أو في متناول يده علـى مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيـام في الأسبوع، بدءاً من إطلاعه على القضايا الأمنيـة، وآخر مستجدات الأخبار السرية، وانتهـاء بتوفير الاتصال الفوري مع القادة على امتداد البلاد والعالم.

اغتنمنـا فرصـة بقائنا في كروفورد هـذا الأسبوع للقيام برحلـة باتجاه الغرب تهدف مـن ضمن أهـداف أخرى، إلى تعريف الكبار في السن بوصفـات الأدوية في نظام العناية الصحيـة الجديد والذي سيتم تطبيقه قريباً، بالإضافـة إلى إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، والزيارة المرتقبة لجنود البحرية الجرحى. بالنسبة إلى أي شخص عادي، يعتبر برنامج مثل هذا، منهكاً – كقيام مسؤول تنفيذي كبير بإلقاء سلسلـة مـن الخطابات على سبيـل المثال. لكن هـذا لم يمنع منتقدينا مـن الهجوم على الرئيـس «الذي يقضـي إجازته في كروفورد» مـن أجل شحن متزايد للجـو بهذه الأفكار. أذكـر أنـه كان عليّ أن أضـع الأمور في نصابها بعـد عدة أشهر عندمـا ذكرت مقالة في صحيفـة نيويورك تايمز ما أرادت إظهاره كحقيقـة، أن الرئيس شعر بالارتياح يوم عرف

أن مدينــة نيو أورلينز قد نجت من ضربــة كارثية بينما كان «يقضي إجازة في كروفورد». في الحقيقــة، كان الرئيــس في مدينة سان دييغو، ولم نكــن نشعر بالارتياح. لكن مصطلح «الإجازة» يعد مناسباً لاختلاق القصة المناسبة - التي تزعم أننا أسأنا التقدير، وقد كان ذلك صحيحاً.

فهمــت أن كل ذلــك كان جــزءاً من السياســة المعمول بها في واشنطــن. ولكنني أردت التأكــد من أن مــا يزعم أنها كانت «إجازة» لم تفسر علــى أن «الرئيس كان يستجم بينما كانــت نيو أورلينــز تغرق». هنا تكمن أهميــة التنظيم الحصيف لخطــط السفر، وإطلاع الصحافــة عليها بشكل كامل، وبكل شفافية. ولكــن لسوء الحظ، كانت ستطغى على هذه القضية مشكلات سياسية وإدارية أكبر سيتم الكشف عنها في الأسبوع الثاني.

كانــت مسألــة تحديد موعد قيامنــا بالسفر إلى مدينة نيو أورلينــز بحد ذاتها تشكل مجموعــة مــن التعقيدات. كانــت الممارســات المعيارية للبيــت الأبيض في عهــد بوش لا تتضمــن أن يقوم الرئيس بالظهور في منطقة الكــوارث الطبيعية. كنا نريد أولاً وقبل كل شــيء، التأكد مــن أن شيئاً لا يمكن أن يعرقل سرعة التحــرك في حال الطوارئ، وجهود إعــادة الإعمار في أعقــاب حدوث الكارثة مباشرة. فحتى لو كانــت مثل هذه الزيارة من قبل الرئيــس غير معلنة على نطاق واسع، فإن المرافقــين، والطاقم الصحفي، والعملاء السريين، وعناصر الدعم سيشكلون حاشية من الحجم الكبير؛ ناهيك عن الطاقم الذي يجــب أن يسافر قبل الرئيس لتنسيق كل ما يتعلــق بهذه الزيارة مع الأشخاص المسؤولين على الأرض. عندما تحل المصيبة، وتكون حياة الناس في الميزان، فإنه ليس من المنطقي أن تتشتــت جهــود عشرات من العمال والمسؤولين وتتحول مــن جهود الإنقاذ إلى التركيز على ترتيب زيارة رئاسية.

ثانيــاً، لم يشــأ الرئيس يوماً أن يبدو ظهــوره بهذا الشكل وكأنه استثمــار للمأساة من أجــل غايات انتخابية. لهذين السببــين، فإن المحافظة على فسحة زمنية تفصل بين وقوع الكارثــة، وقيامه بزيارة المنطقة المنكوبة كانت تبــدو بالنسبة للرئيس هي ما يجب القيام بــه. فعلى سبيل المثــال، لم يقم بزيارة موقع الضربة في نيويــورك إلا يوم الرابع عشر من

أيلـول، أي بعد ثلاثة أيام على وقوع الهجمات سنـة 2001، وفقط بعد أن تم التأكد تماماً مـن أن تلـك الزيارة لـن تعرقل أعمال الإنقاذ وجهـود إعادة الإعمار التـي كان يقوم بها المتطوعون الأوائل.

تم ترتيـب جدول زيارتنـا إلى نيو أورلينز ضمـن هذه الاعتبارات، وكنـت أنوي القيام بشـرح كل ذلك لوسائـل الإعلام قبل أن يلقـي الرئيس كلمته في المناسبـة الأولى صبيحة ذلـك اليوم الواقـع في الثلاثين من شهـر آب، أغسطس، في مدينة سـان دييغو. ولكن كما يحـدث أحياناً، فقد انحرفـت خططي عن مسارها قليلاً. فنظـراً إلى ضيق الوقت بسبب أن الرئيـس كان تواقـاً للبدء في إلقاء الكلمـة بعد وصوله مباشـرة، أسرعت عبر المنطقة المفصولـة بالحبال أمام المنصـة إلى المنطقة المخصصة للصحافـة. استطعت بالكاد أن أعلن أمام الصحفيين أن الرئيس سوف يعود إلى العاصمة واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكـن، وقبل أن أتمكن مـن إعطاء أي تفاصيل إضافية، ظهـر الرئيس الذي يحافظ بدقة علـى مواعيده كالعادة، على المنصة جاهزاً لإلقاء كلمتـه. توقفت وأبلغت الصحفيين أنني سـوف أزودهم بالتفاصيل بعد أن ينتهـي الرئيس من إلقاء كلمته، من دون أن أشتت ذهن الرئيس، أو أستفزه كي ينظر إليّ شذراً.

بدأ الرئيس كلمته بالحديث عن الدمار الذي أحدثه الإعصار:

في صبـاح هـذا اليوم نتوجه بقلوبنـا وصلواتنا من أجل إخوتنـا المواطنين على امتـداد ساحل الخليج الذين عانوا كثيراً من إعصـار كاترينا. إن هذه أيامُ محنة وامتحـان بالنسبة إلى سكان هذه المنطقـة. نعرف أن العديدين تواقون للعودة إلى منازلهـم. وهذا ليس ممكنـاً في الوقت الحالي. أولويتنا القصـوى الآن هي إنقاذ الأرواح، ونحـن ما زلنا في خضم عمليات البحث والإنقاذ. إنني أحث الجميع على إتباع التعليمات الصادرة عن الولاية والسلطات المحلية.

بعدهـا، تابـع الرئيـس بقيـة خطابه، الـذي ركز علـى إحيـاء ذكرى الانتصـار على اليابانيـين. وعندمـا انتهى من إلقاء الخطـاب، بدأت مباشرة في شـرح تفاصيل التغيير الـذي حصل على الخطـة إلى الطاقم الصحفي، وقد أطلعـت الصحفيين على البرنامج

الذي كنا ناقشناه في مؤتمر الدارة المغلقة لكبار المسؤولين، كما أعلمتهم أن الرئيس استلم تقريراً بآخر المستجدات عن تقدير لحجم الضرر، والجهود المبذولة حالياً.

سأل أحد الصحفيين إذا كانت لرحلة العودة إلى واشنطن دلالة رمزية معينة طالما أن بإمكان الرئيس ممارسة صلاحياته من منزله في كروفورد. أجبت: «كلا؛ فهذه واحدة من أكثر العواصف تدميراً في تاريخ أمتنا، والرئيس اتخذ قراراً بعد أن استلم تقريراً بشأن آخر المستجدات هذا الصباح بالعودة إلى واشنطن والإشراف على الجهود المبذولة من هناك - هناك الكثير من الجهات المشاركة في هذه في هذه الجهود المبذولة - وهو ما يتطلب جهداً طويلاً ومستمراً من قبل الجهات الفيدرالية كافة التي تعمل جنباً إلى جنب مع الولاية ومع المسؤولين المحليين لمساعدة الناس على تجاوز آثار الدمار والخراب».

على بعد أمتار قليلة، كان الرئيس يصافح عدداً من السكان المحليين الذي عبروا عن أمنياتهم له بالتوفيق عبر حاجز الحبال الذي يفصل بين الجانبين. وأثناء عودته باتجاه المنطقة الواقعة خلف المنصة، أشار مساعد السكرتير الصحفي، جوش ديكارد إلى ضرورة أن نقوم بإعداد أنفسنا للمغادرة. أراد من الطاقم الصحفي أن ينضم إلى الموكب كي يكون جاهزاً للانطلاق حالما يكون الرئيس قد قرر المغادرة. وبينما كان يرافق الطاقم الصحفي، توجهت نحو المنطقة الواقعة خلف المنصة حيث كان الرئيس والوزير رمسفيلد يصافحان كبار مستقبليهم.

وبينما كنت أقف جانباً استرعى انتباهي أن مارثا راداتز التي كانت حينها مراسلة محطة ABC في البنتاغون، كانت برفقة مجموعة من ضباط الجيش المسافرين مع رمسفيلد. تساءلت عما تفعله هنا، خلف الكواليس، طالما أن هذه المنطقة ليست في العادة متاحة أمام الصحافة. إنه المكان الذي يمكن للرئيس أن يأخذ فيه قسطاً من الراحة، وأن لا يقلق بشأن «ممارسة رياضته الخاصة» طالما أن أحداً لا يسجل كل كلمة يقولها أو يحصي عليه كل حركة يقوم بها.

وقع نظري على إريك راف، وهو ضابط اتصالات متقاعد من الحزب الجمهوري، والناطق باسم رمسفيلد، وكنت أعرفه منذ عدة سنوات. تنحيت به جانباً وسألته: «ما

الذي تفعله هنا؟» وكنت أقصد راداتز. نظر راف حوله بدهشة وقال: «إنها برفقة الوزير، ولكـن ليـس لدي أي فكرة عن سبـب وجودها هنا خلف الكواليـس». بعدها مباشرة طلب راف أن تتم مرافقة راداتز إلى خارج تلك المنطقة؛ ولكن بعد فوات الأوان.

في الوقـت الذي توجه راف نحو راداتز، لحظت أنها كانت تحمل بيدها كاميرا صغيرة للتصوير. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، علمت أن إحدى الصور التي التقطتها كانت تمثل لحظة خاصة. فقد قدم مارك ويلز، وهو مطرب يؤدي الأغاني الريفية، والذي قام بالغناء في حفـل إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين قبل وصول الرئيس، هدية صغيرة للرئيس وكانـت عبارة عن آلة غيتار تحمل الخاتم الرئاسي. قبل الرئيس الهدية وهو مبتسم، قام بعدها بمداعبة بعض أوتار الغيتار. كانت تلك لحظة لطيفة خففت من وطأة يوم شاق. أنا متأكد من أن ويلز أعجب بهذه اللفتة من بوش. أما راداتز، فقد اعتبرت أن صورة الرئيس وهو يداعب أوتار الغيتار جديرة بالملاحظة، كما علمت في وقت لاحق من ذلك اليوم.

تم إخـراج راداتـز من تلـك المنطقة؛ لكـن الصورة التـي التقطتها كانـت قد وصلت إلى وكالـة الأسوشيتـد برس، وكان مقابل تلـك الصورة صورة أخـرى لعائلة على ساحل الميسيسيبـي يتم إنقاذها من على سطـح المنزل الذي تقيم فيه بالإضافة إلى صور أخرى يظهـر فيها سكان نيو أورلينز وهم يتمسكون بجوانـب أسطح منازلهم التي كانت تبتلعها تدريجياً مياه الفيضان.

هـذا بالضبـط ما كنت أخشـاه: صورة للرئيس بوش يبدو فيها كأنـه غير مكترث لما يجري، حيث أن جل اهتمامه ينصب على متابعة برنامجه من دون أن يأبه لمعاناة ضحايا إعصـار كاترينا - القتلى، والمشردين، والمفقودين. هل كان ذلك التصرف عادلاً؟ هناك لحظـات أخرى للرئيس في ذلك الصبـاح كان من الممكن التركيز عليها: الملاحظات التي أبداهـا بشـأن العواقب الخطيرة لإعصـار كاترينا، وقراره المتضمـن تغيير برنامجه كي يركز على موضوع الإعصار، وعيادته للجرحى من جنود البحرية في المستشفى العسكري. لكن وسائل الإعلام ومنتقدينا اختاروا التركيز على صورة الغيتار. كانت رمزاً مناسباً لما اختار العديد من العاملين في الصحافة أن يصدقوه عن الرئيس بوش، وعن أولوياته.

لسوء الحظ، كانت المشكلة أعمق بكثير من مجرد نشر صورة واحدة. وكان لا بد من انقضاء يوم أو يومين قبل أن نبدأ باستيعاب هذه المشكلة بشكل كامل؛ ولكننا كنا قد أخطأنا في طريقة تعاملنا مع إعصار كاترينا منذ البداية. ونحن بذلك جعلنا من أنفسنا عرضة للنوع نفسه من الانتقاد الذي أطلقت له العنان الصحفية راداتز والصورة التي نشرتها.

أدركنا بشكل متأخر أنه كان من الأفضل لو قام الرئيس بوش بإلغاء رحلة اليومين إلى الغرب، والعودة إلى واشنطن يوم السبت أو الأحد قبل أن يفلت إعصار كاترينا من عقاله. حتى لو أننا قفلنا عائدين من تكساس إلى واشنطن يوم الاثنين، لكان ذلك أفضل بكثير؛ ولكانت الرسالة قد وصلت: إن الرئيس يتفهم حال الطوارئ هذه، وإنه يأخذها على محمل الجد، وهو منخرط فيها شخصياً، كما أنه يريد أن يكون التجاوب الفيدرالي هو الأولوية المطلقة بالنسبة إلى كل فرد في الإدارة. بدلاً من ذلك، أخّرْنا وسوّفْنا وتابعنا أداء الأعمال اليومية كما لو أن شيئاً لم يحصل؛ ونحن بذلك قمنا بإرسال الرسالة المعاكسة تماماً: البيت الأبيض في عهد بوش يركز على كل شيء إلا على إعصار كاترينا.

كيف أخفقنا بهذا الشكل المروع؟ لم تكن المشكلة تتمثل في نقصٍ في المعلومات. فخطورة هذه العاصفة كانت واضحة، وتم إبلاغنا بها مسبقاً من قبل ماكس ميفيلد مدير مركز الأعاصير الوطني. وبينما كانت المعلومات التي تلقيناها بعد هبوب إعصار كاترينا يومي الاثنين والثلاثاء غير كاملة، ومتناثرة وغير دقيقة، فإن الإحصاءات التي تلقيناها كانت كافية لنعرف أن هذه العاصفة مدمرة – وربما كانت هي «العاصفة الكبرى» التي كان سكان مدينة نيو أورلينز، والمتخصصون في إدارة الطوارئ يتوجسون منها.

كانت المشكلة تكمن في تركيبة عقولنا. كان البيت الأبيض في عهدنا قد مر بكثير من الكوارث بدءاً من أعاصير السنة الفائتة، ونكوصاً إلى الكارثة غير المسبوقة في الحادي عشر من أيلول. ربما كنا كمن أصابه شيء من الخدر («ماذا، هل هي كارثة أخرى؟»)، أو، ربما كنا نعبر عن شيء من الرضا («مررنا بحوادث مشابهة من قبل»). افترضنا أن المسؤولين المحليين والفيدراليين سوف يقومون بعملهم المعتاد الذي سيؤدي إلى تخفيف

حـدة الخراب مثلما فعـل مسؤولو ولاية فلوريدا الموسميون في السنـة الفائتة؛ كما تذكرنا كيـف تفـوق الرئيس بوش على نفسه وهـو يطمئن الأمة ويخفف عنهـا عشية حدوث هذه الكـوارث. فبدلاً من أن نحسب حساباً لأسوأ سيناريو ممكن، ونتصرف على أساسه، فقد جازفنـا بالظـن أن إعصار كاترينا لن يفلت زمامه من أيدينا، ولن يكون مدمراً أو كارثياً علـى النحو الذي ظهـر عليه. ولذلك فقد تركنا لردة فعلنـا المؤسساتية أن تسير من دون قيادة مباشرة. وبدلاً من اغتنام الفرصة والإمساك بزمام المبادرة، والتحكم فيما يجري على الأرض في مدينة نيو أورلينز، تركنا للأحداث أن تتحكم بنا. لقد كان ما فعلناه خطأ دفعنا ثمنه غالياً.

بعد ذلك مباشرة، ساءت الأحوال أكثر فأكثر. فقد صدر عنوان رئيس مرعب في إحدى وسائـل الإعلام بعنوان – حكاية لا مبـالاة – وتبعه بعد ذلك مباشرة عنوان آخر – حكاية عدم الأهليـة. وقد ثبت في الأيام الثلاثة اللاحقة، أن استجابة الحكومة لكارثة الإعصار كانت بطيئة وغير كافية، وكانت الصحافة، ومعها الجمهور يربطون بين صورة رئيس غير مكـترث بما يجري، وبين الأخبار الواردة عن التعاطي المضطرب لإدارته مع الكارثة، وهو مـا أثـار حكايات لا يمكن مقاومتها عـن إخفاق الحكومة؛ هذا الإخفـاق الذي ما إن يبدأ بالترسخ في أذهان الناس حتى تصبح إزالته من أذهانهم عملية شبه مستحيلة.

منذ صباح يوم الثلاثاء، ذاك، لم نعد نعرف كيف، أو من أين ستأتينا الضربة الآتية. توجهنـا بفرح إلى تكساس كـي نجمع أغراضنا ونمضي ليلة استراحـة قبل أن نغادر إلى العاصمة واشنطن في اليوم الثاني.

أثنـاء ذلك كلـه، كانت الآلاف مـن الناس محتجزة إمـا في السقيفـة، أو على أسطح المنـازل، أوفي أي مـكان آخر في مدينة نيو أورلينز بانتظار مساعدة، وهم لا يحملون سوى الثيـاب التي يرتدونها. انقطـع التيار الكهربائي عن المستشفيـات الممتلئة بالنزلاء الذين يعانون من شدة المرض. وكانت الملاجئ بما في ذلك القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز، ومركـز المؤتمرات تغص بعشرات الآلاف مـن المشردين عن ديارهم، والجياع، والمرضى، والمذعورين. وقـد زادت التقارير المتناقضة المتسربة من داخل المدينة من حدة الفوضى: كان النـاس يتحدثـون عن انتشار أعمـال النهب والسلـب، وأعمال العنـف، والعصابات

المسلحة من القتلة الذين ينشرون الذعر في المدينة (ثبت فيما بعد أن بعض هذه القصص كان مبالغ فيها، ولكن كان من المستحيل في حينها التمييز بين الواقع والخيال).

كانت المشكلات الأساسية التي يتعين على البيت الأبيض في عهد بوش مواجهتها كبيرة وضاغطة. وكانت الكارثة الموازية التي حلت بالبيت الأبيض في مجال العلاقات العامة، وبدأت بالتكشف قد زادت من وطأة هذه المشكلات. وفي وقت ما، من صبيحة يوم الأربعاء، علمت أن كارل روف ما زال يدفع باقتراحه غير الموفق الذي عرضه في لقاء الدارة المغلقة، وأنه أقنع الرئيس بالفعل بالقيام برحلة استكشاف جوية فوق المنطقة المنكوبة التي ضربها إعصار كاترينا.

تحدثت إلى دان بارتليت حول هذا الموضوع بالهاتف. كنت ما زلت على موقفي الحازم أن هذه فكرة سيئة. لم يخالفني دان الرأي، إلا أنه أوضح أن كارل مقتنع بأننا بحاجة إلى القيام بذلك – وأن الرئيس موافق على ذلك.

لم يبق لديّ وقتها سوى القليل من الروح القتالية، وقد اضمحلت إلى حد كبير، رغبتي في القيام برد قوي في أعقاب الهجوم الكاسح الذي شنته علي وسائل الإعلام بسبب تأكيداتي السابقة حول قضية بليم. تجاهلت الأمر بشكل كلي، ولم أعترض عليه. لم أشأ إثارة الموضوع مع الرئيس. كنت أعرف أنها خطوة خاطئة، ولكن لم تكن لدي فكرة حول كمِّ الخراب الذي ستحدثه هذه المسألة لصورة الرئيس.

قبل مغادرة كروفورد، تحدثت إلى الصحفيين على أرض المطار الإسفلتية. شرحت لهم كيف أدار الرئيس مؤتمراً بالدارة المغلقة حول عمليات الإغاثة لمنكوبي الإعصار من مزرعته. أكدتُ على أن الرئيس يعطي الأولوية القصوى لعملية إنقاذ الأرواح، أما أولويته الثانية فتتركز حول الإستراتيجية البعيدة المدى لمواجهة احتياجات مئات الآلاف من المواطنين اللاجئين. ركبنا بعدها في الطائرة الرئاسية في طريقنا إلى واشنطن، بما في ذلك التحليق فوق منطقة الإعصار، وهو ما كان كارل روف قد أصر على القيام به.

جرت عملية التحليق بسلاسة من الناحية التقنية. وبينما كانت الطائرة الرئاسية تقترب من مدينة نيو أورلينز، انخفضت إلى ارتفاع أدنى، وانتقل الرئيس من مقصورته

الخاصــة إلى الجانب الأيسر من الطائــرة حيث يجلس عادة رئيس الشرطة السرية. وقد وفــر له هذا الموضــع، الزاوية الأكثر وضوحاً للدمار الذي أحدثــه إعصار كاترينا. انضم إليــه كارل روف، ونائب مستشار الأمــن الداخلي، جي. دي . كراوتش، بالإضافة إلى أحد قباطنــة الطائرة، وأنا. كما تم استدعاء مصوري الكاميرات الثابتة في الطاقم الصحفي لالتقــاط صور لمدة دقيقتين بينما كان بوش ينظــر من عَلٍ باتجاه المدينة الهلالية الشكل، والتي تغمرها مياه الفيضان.

استغرقــت مــدة الطيران خمســاً وثلاثين دقيقة علــى ارتفاع 2500 قــدم فوق مدينة نيــو أورلينز، والمــدن الساحلية في ولاية الميسيسيبي وهي مــدن سليديل، وويفلاند، وباس كريستيــان، وغالفبــورت، وبيلوكســي، وباسكاغــولا. شاهدنا في مدينتــي ويفلاند وباس كريستيــان مقاطــع إسمنتية معزولــة في الأماكن التــي كانت البيــوت الخشبية موجودة، وكانــت الأنقاض «تبدو من الجو وكأنهــا أكوام من أعواد الكبريت علــى مد النظر»، كما وصفهــا التقرير المقدم مــن الصحفي بيتر بيكر، مراسل صحيفــة واشنطن بوست. كان المــزاج في المقصــورة عكراً جــداً. شعر الجميع بمن فيهــم الرئيــس بالصدمة من جراء مشاهدة الخراب الذي خلفه ذلك الإعصار.

تضمنــت نشرات الأخبــار مساء ذلك اليوم صــوراً للرئيس وهو يحــدق عبر النافذة، وتبعتهــا في ذلك الصحف الصادرة في طول البلاد وعرضها صبيحة اليوم الثاني. تجسد الانطبــاع الــذي كان يثــير في نفســي أشد الخوف في كل صــورة من هذه الصــور التي تم التقاطهــا. وقــد لخص الكاتبــان وين سليتر وجيمــس مور هذه الحادثــة بأسلوب بليغ في كتابهما «المهندس: كارل روف والخطة الكبرى للوصول إلى السلطة المطلقة»:

> تصــدرت صــورة بوش وهو يحدق عــبر النافذة في تلك البقعــة المريحة نصف المضــاءة محاطاً بالأمان والراحة اللتين توفرهما الطائرة الرئاسية، ويمعن النظر مــن عَلٍ في مدينة ضائعة ومدمرة وغارقة تدريجياً في الفوضى، الصفحات الأولى من الصحف الصادرة صباح اليوم الثاني. كانت هذه الصور من بين أكثر الصور التــي تسببت في الضرر لرئاستــه. كان الرئيس يبدو منسلخاً عــن الواقع ومشلول الإرادة وعاجزاً حتى عن استيعاب كيف يمكن له أن يسخر حكومته لخدمة شعبه.

والأسوأ من هذا وذاك، أن هذه الصور لم تعطِ أي انطباع بأن الرئيس مهتم أو قلق بشأن الكارثة التي تتكشف من تحت جناحي الطائرة الكبيرين.

لم تعد للقائي الذي جرى مع الصحفيين في وقت سابق فائدة تذكر بعد نشر الصور في الصحف. فقد كانت الصورة التي رسمتها للرئيس تدل على أنه مهتم جداً، وأنه كرس وقته بشكل كامل لهذه المسألة؛ إلا أن الصور التي نشرت له وهو يحدق عبر نافذة الطائرة الرئاسية بالناس الذين تحتجزهم مياه الفيضان في الأسفل طبعت له في أذهان الناس صورة مختلفة كلياً وجزئياً. لقد كانت درساً عملياً يمثل السلطة المطلقة التي تجسدها هذه الانطباعات في عالم اليوم الذي تحكمه المرئيات.

الخراب الذي شاهده الرئيس أثناء عملية التحليق كان له تأثير كبير عليه بالتأكيد؛ ولكن من المستحيل أن يشعر المرء كما يجب بعذابات أولئك الذين يعانون في الأسفل وهو يسترق النظر من الطائرة الرئاسية التي فيها كل مقومات الترف والراحة. لا يمكن للمرء أن يشعر بالتعاطف الحقيقي إلا إذا التقى وجهاً لوجه مع الضحايا. لقد استوعب بوش بالتأكيد حجم الدمار الذي أحدثه الإعصار أثناء زيارتنا الأولى إلى المنطقة بعد يومين على انحسار الإعصار بالرغم من أنه لم يلتقِ أبداً حتى في هذه الزيارة بأي من الأشخاص الأكثر تضرراً من الكارثة في مدينة نيو أورلينز.

الطريقة التي يتم فيها تعريف كلمة «القيادة» في أمريكة هذه الأيام تثير الضحك. فهي تتطلب القوة والثبات والحزم بالإضافة إلى تركيز لا يتزعزع على الالتزامات المباشرة اليومية التي يتعين عليه الوفاء بها. وتتضمن أيضاً إظهاراً مرئياً للمشاعر، والأحاسيس، والتعاطف، والحزن - وهي مزايا أكثر لطفاً، مما يجعلها تخوض صراعاً مع الشدة والقسوة اللتين نتوقعهما من قادتنا. كان بوش يفهم هذين الدورين، وكان في معرض تصديه لمتطلبات المصلحة التي يفرضها موقعه، قد استطاع أن يعتمد على قدرته غير المحدودة في إخفاء مشاعره - أي أن يبني جداراً داخل ذاته يعزل في داخله ردات الفعل العاطفية والنفسية المختلفة التي تتسبب بها جملة من القضايا الضاغطة التي تواجهه بشكل يومي.

ساعدتـه هذه الإستراتيجيـة في أن يكشف عن شخصية قيادية هادئة ومتزنة في وقت الأزمات. وكان بوش يرى أن هذا النوع من الهدوء مؤشر على مزايا القائد المنضبط الذي يركـز على اتخاذ قرارات صعبة، وتوزيع المهام علـى من حوله بحكمة وروية تشبه طريقة المسؤول التنفيذي الكبير، صاحب الكلمة المسموعة. وعند هذا المفصل في رئاسته، وبحكم كونه قد مر بعدد من الأزمات التي شكلت اختباراً لقيادته، فقد كان يعرف كم من السهل أن يـترك لمشاعـره أن تسيطـر عليه، وتشل تفكـيره. حدث هذا الأمر مـع رئيس آخر من تكساس: ليـنـدون جونسون في ذروة الحرب في فيتنام. كان بوش مصمماً على أن لا يدع شيئـاً مشابهـاً يحدث له، سـواء كان ذلك بسبب حرب في الخـارج، أو كارثة داخل حدود الوطن.

تعنـي عبـارة القائد القوي وقت الأزمـات بالنسبة لبوش أن لا يسمـح لنفسه بأن يقع فريسـة لمشاعـر الألم والقلق. إنها تعنـي قيامه بحل المشكلات ببرود وبتـؤدة مستنداً في ذلـك إلى رؤية إستراتيجية. وهو بنتيجة ذلك قد يبدو منسلخاً عن واقع الناس المعيشي. وهذا بالضبط ما حدث عشية إعصار كاترينا. فقد كان الناس في طول البلاد وعرضها يشاهدون الصـور المرعبة في شاشة التلفزيون: جثث تطفو فوق مياه الفيضان، أو منكبة على وجوهها على الأرصفة، أو عائلات محاصرة فوق أسطح منازلها وهي تستغيث طالبة الطعـام والمـاء، أو أشخاص يحتمون تحت ألواح مـن علب الكرتـون. كان بوش يريد أن يظهـر بمظهر المسيطر على الوضع، ولكنه كان بحاجة إلى أن يظهر بأنه مهتم بمصائب النـاس – وأنـه متفهـم للوضـع الذي يمرون بـه، وأنه يشـارك الأمريكيين هـذا الشعور بالرعـب والغضـب، وأنه مصمم على اتخاذ كل ما يلزم مـن أجل تحريك البيروقراطية في واشنطـن لتستجيب لمطالـب الناس. لكن الصور التي التقطت لـه أثناء التحليق فوق منطقـة الإعصـار لم تظهر أيـاً من ذلك. وفي الوقت الذي بدأ بوش يظهر أنه مهتم بما يجري من دون افتعال أي ضجة، كان الوقت على ذلك قد فات.

في اليومين اللاحقين، كان عليّ وعلى دان بارتليت أن نقاتل على واحدة من جبهات هذه المشكلـة، ألا وهـي جبهة العلاقات العامة. تحدثنا مطـولاً إلى الرئيس بوش حول الحاجة

إلى إظهار أنه مهتم بما يجري وذلك بشكل علني. إلا أن الجانب المتعلق بالسياسة العامة للمشكلة كان أكثر خطورة بكثير، وكان ما يزال مغيّباً.

كان العديد من المسؤولين داخل البيت الأبيض ينكرون أي مسؤولية للإدارة فيما يتعلق بإعصار كاترينا. ركزنا خلال الأسبوع الأول، على ضعف الاستعدادات التي قام بها مسؤولو الولاية والمسؤولون المحليون لمواجهة الإعصار. وهو أمر صحيح. ولكننا أهملنا إلى درجة كبيرة حقيقة أن الحكومة الفيدرالية هي الداعم الأساسي، وهي آلية الأمان التي ينبغي اللجوء إليها للتعويض عن أي ضرر يحدث على المستوى الأدنى. عندما تكون رئيساً، يكون الدولار في جيبك – وهي حقيقة لم يفهمها جورج دبليو بوش كما ينبغي، حتى الآن.

عصر يوم الأربعاء، ترأس بوش في البيت الأبيض الاجتماع الأول لوحدة طوارئ تم تشكيلها حديثاً على المستوى الحكومي تابعة للبيت الأبيض من أجل التعامل مع إعصار كاترينا. قال في بداية الاجتماع: «سوف نتعامل مع هذا الموضوع لمدة طويلة». وتابع قائلاً:

> إن تنسيق المسؤوليات مع المسؤولين المحليين والمسؤولين على مستوى الولاية هو أمر هام. هناك قضايا على الأرض لا بد من معالجتها. نحن بحاجة لأن نعرف من هو المسؤول، ومن هو المشرف على سير العمليات ميدانياً. لقد تحدثت لتوي مع حاكمة ولاية لويزيانا [كاثلين] بلانكو وأبلغتها أنه إذا أرادت تكون معنا، فإننا نحن من سيشرف على سير العمليات على الأرض.
>
> إنها كارثة مريعة. فبعض أجزاء من ولاية ميسيسيبي قد تم محوها من الخريطة. إنه شيء يفوق الوصف. في مدينة نيو أورلينز، زالت أحياء بكاملها. إننا نتحدث هنا عن عملية إعادة بناء مدينة. لا يمكن وصف كم هو مريع الوضع هناك.

ختم بوش حديثه الافتتاحي بكلمات بسيطة: «هناك مشكلة، ويتعين علينا حلها».

كان تشيرتوف، وزير الأمن الداخلي قد بدأ سلسلة لقاءات إعلامية يومية بحضور المسؤولين عن وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية بمن فيهم مايك براون. كان يطلع

الإعلاميين على آخر المستجدات في الوضع الميداني، ويراجع معهم الأولويات على المدى القصير، والمتوسط، والطويل. كانت الحاجات الأولية ملحة: إنقاذ الأرواح، والسيطرة على الفيضان، وإخلاء مدينة نيو أورلينز بالكامل، وإيصال الماء والطعام إلى المحاصرين، ومواجهة المشكلات الأمنية، وإيصال المعونة الطبية لمن يحتاجها. وكانت ندرة المعلومات الموثوقة تساهم في تعقيد كل هذه القضايا. اعترف تشيرتوف بأن «معرفة ما يجري حقيقةً على الأرض، ما تزال مشكلة». حتى الآن، عندما سأل الرئيس عن فعالية اتصالات الطوارئ بالنسبة للمتطوعين المحليين وعلى مستوى الولاية، فإنه أبلغ بأن عدداً محدوداً من الاتصال عبر المحطات الفضائية موضوع بتصرفهم. أطلع الوزير رمسفيلد وسائل الإعلام على آخر المستجدات بشأن قيامه بنشر وحدات عسكرية في المنطقة، خصوصاً في مدينة نيو أورلينز؛ وهو ما دفع الرئيس إلى التصريح بأن من المحتمل أن تكون هناك حاجة إلى جعل الاستجابة لمعاناة نيو أورلينز مسألة فيدرالية. وفي معرض تلميحه إلى تدهور الحال الأمنية في المدينة، أعلن أن» هذه منطقة حرب، أؤكد لكم. إنني قلق من اندلاع أعمال شغب. إننا بحاجة إلى أن نقرر [فيما إذا كنا سنطلب من الحكومة الفيدرالية استلام زمام الوضع] في الأيام القليلة المقبلة».

تناول أعضاء آخرون في الحكومة مسألة الأولويات التي تقع ضمن مجال عملهم، كالنقل، والصحة، والطاقة، والقضايا البيئية. ختم الرئيس بالقول: «سوف أدعو إلى اجتماعات متكررة إلى حين تتم سيطرتنا على المشكلة». لقد كانت جلسة كئيبة.

في الوقت الذي ركز المسؤولون في وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية والحكومة على الخطوات الميدانية لمساعدة المنطقة التي اجتاحها الخراب، فقد حاولنا التصدي لمهمة الاتصالات. لكننا لم نفلح في ذلك. فقد كانت الهوة التي تفصل بين الرسائل المطمئنة التي كنا نود إيصالها وبين الوقائع على الأرض عميقة جداً، وواضحة جداً.

بعد انتهاء اجتماع وحدة الطوارئ، تحدث الرئيس بوش إلى الأمة من حديقة الزهور في البيت الأبيض. حدد الخطوات التي تم اتخاذها من أجل إنقاذ الأرواح، كما تحدث

عـن الخطـة الشاملـة التي ستظهـر إلى العلن قريبـاً من أجـل إعادة البنـاء على المدى الطويـل. حـاول أن يترك الانطباع بأن شحنات أساسية مـن الطعام والماء والأدوية تصل إلى مستحقيهـا. صحيح أن خفر السواحل، بالإضافـة إلى فرق البحث والإنقاذ الأخرى، كانت تقـوم بأعمال بطولية؛ إلا أن الصور التي بثتها شاشـات التلفزيون لعشرات الآلاف مـن الأشخاص المحاصرين في مدينة نيو أورلينز، والذين تعوزهم المؤن كانت أيضاً صوراً حقيقيـة، وأعطت الانطبـاع بأن الرئيس كان مجرد متعهد لتقـديم الطعام في الحفلات، همـه الأكـبر إعطاء الانطباع الوهمي بأن كل شيء على مـا يرام. في وقت لاحق من اليوم نفسـه، قـدّر عمدة نيو أورلينز راي ناغين عدد الموتـى في المدينة بالآلاف. (الحمد لله أنه كان مبالغاً جداً في تقديراته، ولكن لم يكن باستطاعة أحد التأكد من ذلك في حينه).

كان دان بارتليت يعمل جاهداً كي تكون قناة الاتصالات على الصعيد الفيدرالي فعالة بمـا فيه الكفاية. فبالإضافة إلى اللقاءات الصحفية اليومية التي تقوم بها وكالته، تشجع مدير وكالة إدارة الطوارئ للقيام بجملة من المقابلات خصوصاً مع الشبكات التلفزيونية. وأجرى الوزير تشيرتوف العضو الحكومي المسؤول الأكبر عن التعامل مع المسألة مقابلات أكـثر. لكن تشيرتوف وبـروان أثبتا أنهما بعيدان جداً عما يجـري. ففي مقابلة له مع تيد كوبـل في برنامج Nightline قال براون إن مركـز الاجتماعات يؤوي نحو 5000 شخص، وأن الطعـام والماء قد توزيعهما من قبل وكالـة إدارة الطوارئ. إلا أن العدد الحقيقي كان يتجاوز 25000 شخص، ولم يكن المركز يحتوي على أي تجهيزات على الإطلاق. كما قام تشيرتـوف بنفـي ما قيل إنه يجـري في مركز الاجتماعات من أمور خطـيرة رأى أن ذلك مجرد إشاعات.

ولأن التقديـرات المملـوءة بالتفاؤل كانـت تتناقض بشكل واضح مـع تقديرات وسائل الإعـلام، وما تظهره الصور فـإن التصريحات الوردية التـي أدلى بها براون وتشيرنوف ومسؤولون آخرون فندتها تقارير الصحفيين - وهو أمر مفهوم.

وبينمـا كان بارتليت يركز على إستراتيجية الاتصالات بإطارها العام، فقد كنت أركز علـى التفاصيل اليومية، وكنـت أسعى إلى التنسيق الكامل مـع زملائي في الوكالات ذات

الصلـة – على سبيل المثال، عبر التأسيس لاجتماع يومي عن طريق الدارة المغلقة لتقاسم المعلومـات الجديـدة الأكثر أهميـة. بطبيعة الحـال، كان من الأفضل تـرك مسألة شرح القضايا العملية إلى من هم أقرب إلى ذلك. كان دوري ينحصر في الحديث حول ما يقوم بـه الرئيس، والاجتماعات التي يعقدها، وحول الصورة الأكـبر التي تصورناها حول دور البيت الأبيض.

ولكـن في هذا المجـال أيضاً، كانـت الهوة الكبيرة بـين الرسالة المتوخـاة وبين الواقع مستمرة في الاقتطاع من رصيدنا. فيوم الخميس، وفي مقابلة أجرتها معه دايان سوير في برنامج Good Morning America، وبثت على الهواء مباشرة، أثار الرئيس بوش زوبعة أخرى ضمن ذلك الإخفاق اللولبي الذي يدعى إعصار كاترينا. هذه المرة لم تكن المشكلة تكمن في الصور التي تم عرضها بل في الكلمات التي تفوه بها الرئيس نفسه. عندما سألته سويـر عـن سبب بقائه هو وفريقـه «في إجازة» بينما كان إعصـار كاترينا يضرب ساحل الخليـج، أجاب الرئيس بأسلوب دفاعـي: «بدأت بالتحضير للعودة يـوم الثلاثاء، عندما تبـين لنا المـدى الحقيقي للإعصار. قلت للطاقم المرافق إننـي عندما أعود إلى واشنطن عصـر يوم الأربعـاء فإنني أريـد أن يكون التقرير جاهـزاً على مكتبي، كمـا سأدعو إلى اجتمـاع للحكومة أتوقع فيـه أن تعلموني بالضبط ما الذي ستقوم بـه وزاراتكم للتخفيف من وطأة الوضع».

لم يـرَ الملايين الذين شاهدوا اللقاء ما يطمئـن في رد الرئيس. هل صحيح أنه لا أحد في الإدارة «استوعـب مـدى الضرر الذي تسبب به الإعصـار» إلا يوم الثلاثاء، في حين أن بوش نفسه أعلن عـن حال الطوارئ قبل ثلاثة أيام من ذلـك؟ الأمريكيون الذين سمعوا في السابق الرئيس، وأيدوا آراءه الناقدة والمتحاملة التي قارنت بين العقلية البيروقراطية وبين روحية القيادة الفعلية، كانوا مستاءين لسماعهم أن بوش لم يطلب سوى القليل زيادةً علـى «تقرير جاهز على مكتبي» بحلول عصـر يوم الأربعاء – وذلك بعد أكثر من خمسين ساعة على هبوب الإعصار. بدا الرئيس وكأنه، في لحظة الأزمة هذه، يمارس أسوأ أشكال الإدارة البيروقراطية التي لا صلة لها بالواقع – وهو عكس ما وعد به الناخبين تماماً.

بطبيعة الحال، أستطيع الآن رؤية هذا الإخفاق في التواصل بسهولة ووضوح أكبر مما كنت قادراً على رؤيته حينها. كنت آنذاك كبقية أفراد الفريق، منهمكاً في معالجة التحديات الآنية الهائلة التي كنا نواجهها بما في ذلك الخطوات العملية للتخفيف من حدة المأساة، وأيضاً، القيام بجهود مكثفة في مجال الاتصالات كي نطمئن الجمهور ونطلعه على مجريات الأمور. تظهر الأخطاء التي ارتكبناها في غاية الوضوح، فقط إذا نظرنا إليها بمنظور اليوم - أي من خارج المعمعة.

في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة، أي قبل قيامه بأول زيارة إلى ساحل الخليج، ترأس بوش لقاء مشتركاً حول إعصار كاترينا مع قادة من وزارة الدفاع ووزارة الأمن الداخلي. عقد الاجتماع في غرفة اجتماعات آمنة في مركز الاجتماعات في البيت الأبيض. كان الأمريكيون يشاهدون على مدى ثلاثة أيام كاملة صوراً مريعة عن المعاناة الإنسانية على شاشات تلفزيوناتهم. كانت تلك الصور تقطع القلوب. تساءل العديد كيف يمكن لحكومة فيدرالية بمواردها الهائلة، أن تسمح بحدوث شيء من هذا. وكانوا يطالبون بإجابات.

بدأ بوش الاجتماع بتوجيه رسالة صارمة بناء على إلحاح من كبار مستشاريه. كان واضحاً ومباشراً. قال: «إننا لا نسيطر على الوضع ميدانياً. المكان يعج بالفوضى. يجب إعادة وضع مدينة نيو أورلينز تحت السيطرة. ويجب أن نعيد فرض النظام بأسرع ما يمكن». عبر عن قلقه المستمر بشأن قضايا تتعلق بالقيادة والمراقبة كانت تقف عائقاً أمام التعاون بين حكومة الولاية وبين الحكومة الفيدرالية. وبعد أن أشار إلى أن الكثير من العمل والجهد الشاق قد بذلا في هذا المجال، قال بشكل واضح: «لست سعيداً بالنتائج البتة». كانت الرسالة واضحة. الإخفاق بعد الإخفاق في مواجهة إعصار كاترينا غير مقبول بالمرة. اختتم الرئيس كلماته الافتتاحية بالطلب إلى الجنرال مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة، أن يعيد كل الأفراد العاملين في وحدات الحرس الوطني المتمركزة في الخارج إلى الديار ممن شردت عائلاتهم بفعل إعصار كاترينا.

اتصل الوزير رمسفيلد بالأميرال كيتينغ الذي ظهر على شاشة الدارة المغلقة من القيادة الشمالية بولاية كولورادو المسؤولة عن الدفاع عن الأرض الأمريكية. حدد كيتينغ

الأولويـات العسكرية – وهي إنقاذ الأرواح وحمايتها دعمـاً للجهود المحلية وجهود الولاية والجهـود الفيدرالية. كما عرض لنظـام المراقبة والقيادة المعمول بـه حالياً، والإمكانات التـي وضعت في الخدمة بما في ذلك بعض القطـع البحرية، ونحو مئتي طائرة هيلوكبتر، وأعداد متزايدة من وحدات الحرس الوطني؛ وكانت جميعها بإمرة وحدة كاترينا القتالية المشتركة المتمركزة في كامب شيلبي بولاية ميسيسيبي، وكانت تحت قيادة الجنرال راسل هونوري الذي ظهر على شاشة أخرى تبث من ساحل الخليج.

كانـت المقاربة الحازمة والقيادية التي قدمها هونـوري الذي تم تعيينه لقيادة الوحدة القتالية قبل يومين فقط قد تركت انطباعاً قوياً لدى بوش. قال هونوري إن ولاية لويزيانا ما تزال حتى الآن تعد «مشكلة كبيرة»، بينما لاحظ أن الوضع في ولاية ميسيسيبي مستقر إلى حد ما. كما أكد أن الوضع في داخل القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز «مستقر وتحت السيطـرة». في الساعات الأربع والعشرين الماضية تم إجلاء 15000 شخص من الإستاد. أما الآن، فإن مركز الاجتماعات هو محل اهتمامنا. ما يزال هناك ما بين 25000 و30000 شخص موجودين هناك بعد أربعة أيام على الضربة التي وجهها الإعصار، والأولوية الآن تكمن في تزويدهم بالطعام والماء والأدوية. تحدث هونوري عن التقارير التي أوردت أنباء عـن «إطلاق نار وخروج علـى القانون» فوصف الوضع في مركز المدينـة بأنه «أزمة» لا بد مـن «السيطرة عليها في غضـون الإثنتي عشرة ساعة القادمة». كمـا ذكر أنه تم تحريك وحـدات الحرس الوطني كي تضبط الوضع الأمني في المنطقـة. أعطى الجنرال هونوري صـورة القائد الـذي يسيطر على الوضع تماماً، كما أعطـى الانطباع بأنه على اطلاع تام على المهمة التي عليه القيام بها، ولديه ما يكفي من الحزم لتنفيذها.

تـلا ذلـك نقاش حـول الوضع الأمنـي. في معرض رده علـى سؤال وجهـه إليه الوزير تشيرتـوف، قال هونـوري إن حوادث إطلاق نار معزولة قد جـرى رصدها، ولكن يبدو أن التقاريـر المتعلقة بحوادث اغتصاب حول منطقتي القبـة العظيمة ومركز الاجتماعات لا تستنـد إلى حقائـق. قال إن ما يرغب بـه الناس الموجودون داخل مركـز الاجتماعات هو فقط الخروج منه. أما فيما يتعلق بحوادث النهب والسلب، فقد اعترف هونوري بأن الناس

«يبحثـون عن الطعام لأنه ليـس لديهم طعام». هناك ما يكفي مـن المؤن من طعام وماء، بالإضافـة إلى أن القوة العسكرية في طريقها إلى المنطقة، ولكن تأمين المنطقة والبدء في توزيع المواد على المواطنين سيستغرق بعض الوقت.

وضـع الجنرال كارل ستروك قائد وحدة المهندسـين في الجيش الأمريكي الحضور في صـورة آخـر المستجدات حول إصلاح الحواجز الإسمنتيـة وشفط مياه الفيضان في مدينـة نيو أورلينز. لاحظ أن ميـاه الفيضان استقرت عند مستوى معين، وأن منسوبها مستمر بالانخفاض.

تحـول النقاش بعد ذلك إلى إمكان اعتبار التحرك الحكومي قضية فيدرالية، والتأكيد علـى أن مدينة نيـو أورلينز أصبحت تحت سيطرة الجيش الأمريكي؛ كان هذا واحداً من الخيـارات التـي سبق أن نوقشت بعمق منذ بداية الأسبـوع. كان بوش يعتقد أن الجيش هو المنظمة الوحيدة المنضبطة بما يكفي كي تأتي وتضبط الوضع بسرعة. وعندما تم التطرق إلى الوضع الحالي، وإلى جهود الإغاثة، قال الأميرال كيتينغ إن الوحدات العسكرية مستعدة للتحرك إذا صدرت الأوامر إليها بذلك. ولكن لم يتخذ أي قرار نهائي بهذا الشأن.

أدى هذا إلى نقاش حول صور المعاناة الإنسانية التي كانت تعرض في وسائل الإعلام. لاحظ أحدهم أن بعض هذه الصور التقطت منذ ثلاثة أيام، ومع ذلك فقد أعيد عرضها مـن دون شرح من قبل شبـكات التلفزيون الإخبارية. في ظل مثـل هذه الظروف، لم يكن مستغربـاً أن يكون شعور الأمريكيين بالثقـة في تحرك حكومتهم متدنياً جداً. اختتم بوش الاجتماع بالقول: «إن من واجبنا ومسؤوليتنا أن نفكر بوضوح». كان محقاً، بالطبع. ولكن ذلـك كان يومَ الجمعة في الثاني من شهر أيلـول، سبتمبر. أتت الرسالة متأخرة جداً بعد أسبوع طويل.

لم تقـدم زيـارة بوش إلى منطقـة الفيضان عصر ذلـك اليوم سـوى القليل لتحسين معـدل قبول الناس للطريقة التي عالجت بها الإدارة إعصار كاترينا. بالنسبة إلى معظم الأمريكيـين لم تقـدم هذه الزيـارة في واقـع الأمر سـوى اثنتين من اللحظـات الجديرة بالملاحظـة وشكلت كل مـن هاتين اللحظتين إحراجـاً للرئيس. تمثلـت الأولى في تركيزه

اللافت على استراحة السيناتور الجمهوري ترينت لوت، وهي المنزل الذي يقضي فيه إجازته عادة، والذي تعرض لضرر كبير جراء الإعصار، حيث تحدث بوش بحماس مفرط قائلاً: «من قلب حطام منزل ترينت لوت - لقد خسر منزله بالكامل - سوف يتم بناء منزل رائع مكانه»، وتابع موضحاً أنه يتطلع إلى الجلوس في شرفة المنزل الجديد معه. ونظراً لأنه كان محاطاً بمنازل مهدمة للآلاف من سكان ولاية ميسيسيبي - معظمهم من الفقراء الذين لن يكون بمقدورهم إعادة ترميم مساكنهم إلا بالكاد، ناهيك عن بناء منزل فخم لقضاء إجازة فيه - فإن هذه العبارات قيلت في توقيت سيئ في أفضل الأحوال، وبدت قاسية القلب في أسوئها.

الخطيئة المضحكة الثانية التي تمخضت عنها هذه الزيارة أصبحت أكثر شهرة من سابقتها. ففي لقاء غير رسمي أمام عدسات الكاميرات التلفزيونية، وكان يحيط به العديد من المسؤولين الفيدراليين والمحليين، استدار بوش وأشار تحديداً إلى مايكل براون الذي كان يمطر بالانتقادات، وأغدق عليه مديحاً مستخدماً في ذلك عبارة أضحت معيبة: «براوني، أنت تقوم بعمل رائع!» حتى براون نفسه بدا عليه الاضطراب، ولا غرو في ذلك؛ ذلك أن معظم الأمريكيين توصلوا إلى الاستنتاج بأن مدير وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية كان على قائمة من قرر الرئيس استبدالهم. كانوا بكل بساطة، يتساءلون عن موعد قيام الرئيس باستخدام الفأس ضده، ومن الذي سيخلفه. (في نهاية المطاف، استقال براون بعد عشرة أيام، وذلك في الثاني عشر من شهر أيلول، سبتمبر). أن يقوم بوش بكيل المديح له على الملأ، أوحى بأن الرئيس، الذي يُعرَفُ عنه تقديره الشديد للولاء الشخصي، إما أن يكون الصواب قد جانبه في حكمه، أو أنه ما يزال غير قادر على الإحساس بالسوء الذي وصلت إليه الأحوال في ساحل الخليج. في كلتا الحالين، أوحت هذه الحادثة بأشياء سيئة حول إدارة بوش.

أبلغنا الرئيس فيما بعد أنه لم يكن لديه خيار سوى كيل المديح «لبراوني» في تلك اللحظة. شرح لنا موقفه قائلاً، منهياً ما قاله بسؤال يتضمن الجواب: «كان واقفاً هناك بالضبط. وكنت أحاول رفع معنويات الجميع. ماذا كان من المفترض عليّ القيام

به؟ كان معه بعض الحق؛ إذ كان علينا أن لا نضعه في هذا الموقف. كان الدافع مفهوماً، بل جديراً بالثناء. إلا أن وضعه موضع التطبيق شكل ضربة أخرى لهذه الإدارة التي تترنح مصداقيتها.

وحالما تترسخ عبارة محددة في وسائل الإعلام، سواء كانت جيدة أم سيئة، فإن من الصعب أن تبطئ من زخمها واندفاعها. في هذا الوقت، ترسخت عبارة «إدارة بوش تتجاهل الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا» بشكل كامل في أدبيات وسائل الإعلام، مع ملاحظة أن تفاصيل كثيرة من خارج السياق تقحم في خضم هذه السردية. أخذت كوندي رايس إجازة لمدة يومين قررت أن تقضيهما في نيويورك في ذلك الأسبوع، وبينما هي في نيويورك، ثمة من رآها وهي تحاول شراء زوج من الأحذية من بوتيك فاخر. لم يكن في هذا ما يمكن أن يثير شهية الصحفيين لاعتباره خبراً يستحق الذكر، خصوصاً وأن وزيرة الخارجية لا علاقة مباشرة لها بجهود الإغاثة في كارثة حلت بداخل البلاد. لكن هذا لم يمنع المنتقدين أو وسائل الإعلام من التقاط هذه الحادثة واعتبارها «إثباتاً» آخر على اللا مبالاة التي تبديها إدارة بوش تجاه المعاناة الإنسانية. وقد خرجت صحيفة Daily News الأكثر انتشاراً في نيويورك بعنوان عريض جَذِلٍ يلخص القصة التي استمر الحديث حولها لأسابيع آتية: بينما يغرق الجنوب، رايس تتعرض للبلل في نيويورك.

تظهر أحداث مثل هذه أنه حتى مع وجود الكثير من المواد التي تثير الانتقاد، ومع وجود الكثير من الحقائق المهمة التي يمكن الكشف عنها، فإن المنتقدين ميالون لاستغلال الأحداث التافهة لتحقيق مكاسب سياسية، كما أن وسائل الإعلام تجد أن من الصعب مقاومة ما تراه مهماً من الناحيتين الرمزية والنفعية، وهو ما يؤدي في الغالب إلى تراشق سياسي سخيف لا يضيف أي قيمة تذكر لمهمة البحث عن الحقيقة. أما في حال إعصار كاترينا، فإن أساس مشكلاتنا هناك كانت أكبر وأوضح من أن تطغى عليها قصص تافهة كالقصة التي تحدثت عن شراء كوندي لزوج من الأحذية.

قمت بتغطية جزء بسيط فقط من قصة ردة الفعل الوطنية على إعصار كاترينا، لأنني أردت أن أركز بالدرجة الأولى على الأحداث الأولى التي شهدتها خلال الأسبوع الأول المدمر. وبينما كانت مدينة نيو أورلينز وبقية منطقة الخليج تكافح من أجل استعادة عافيتها بشكل كامل من الدمار الهائل الذي أصابها به الإعصار، فقد بدأ المؤرخون والصحفيون بنشر تفاصيل عن قائمة بالأخطاء التي ارتكبت وذلك قبل وأثناء وبعد الإعصار. لقد كانت حكاية مهمة غنيةً بالدروس والعبر التي يمكن الإفادة منها في المستقبل.

فيما يتعلق بالغاية المتوخاة من هذا الكتاب، فإنني أريد أن أؤكد على أن إعصار كاترينا كان نقطة تحول فاصلة بالنسبة إلى بوش وإدارته. وقد ترك هذا الإعصار لطخة لا يمكن إزالتها عن رئاسة بوش. فالجانب التجاري الطاغي على الجهود المبذولة لمساعدة الناس المقيمين في منطقة ساحل الخليج لم يقنع الأمريكيين بأن يتسامحوا مع الطريقة الأولية التي تعاملت فيها الإدارة والتي أعدت إعداداً رديئاً، والاستعدادات والخطط غير الكافية.

تبين أن إدارة بوش بطيئة ومتثاقلة، ويعود ذلك جزئياً إلى أن هذه الإدارة كانت تعتقد أنها سيدة فن إدارة الطوارئ. لكن إعصار كاترينا كان مختلفاً، ونيو أورلينز كانت مختلفة. ولسوء الحظ، فقد تعامل كل من البيت الأبيض ووكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية مع إعصار كاترينا بالطريقة نفسها التي تعاملا فيها مع الأعاصير الأربعة الكبرى التي ضربت منطقة فلوريدا السنة الفائتة. لم تتخذ حينها أي إجراءات استثنائية منذ البداية. فبدلاً من نشر فرق عسكرية مؤللة كانت المنطقة تحتاجها، فقد تم الاكتفاء بعدد محدود من الجنود الراجلين في البداية بالرغم من حقيقة أننا كنا نعرف أن إعصار كاترينا يمكن أن يكون «الإعصار الكبير» الذي كان يخشاه سكان مدينة نيو أورلينز منذ مدة طويلة. على سبيل المثال، بالرغم من أن كميات كبيرة وغير مسبوقة من المؤن قد تم تحضيرها قبلاً وذلك في معرض الاستعداد للضربة التي سيوجهها

الإعصـار، فـإن تلك الكميات كانت قليلـة جداً إذا أخذنا بعـين الاعتبار الحجم الهائل لهـذه المأساة، كما أن هذه المؤن لم تأخذ طريقها بسرعة وكفاية إلى من يحتاجها بشدة وذلك في الأيام الأولى من الكارثة.

كان ذلك إخفاقاً على صعيدي الرؤية وروح المبادرة. إذ عندما ضربت العاصفة وتبين أن حجم الدمار كان أسوأ مما توقعه أي شخص، كان عجزنا عن التأقلم مع الكارثة يعكس إخفاقنا في تحمل المسؤولية.

قضينـا معظم أيـام الأسبـوع الأول في حال مـن الإنـكار. إن التنصل مـن المسؤولية وتحميلها للآخرين، والتخفيف من حدة الواقع المؤلم يشكلان جزءاً من الطبيعة الإنسانية التي يجب أن تبقى تحت المراقبة. لكن ذلك لم يحدث. ونحن في فريق الاتصالات، تحملنا قسطنـا من اللـوم. ففي الوقت الذي كنا نحـاول حماية الرئيس وسمعتـه، بدلاً من قبول تحمـل المسؤوليـة منذ البدايـة، والتحرك باندفاع لمعالجـة المشكلة، فإننـا حاولنا تجيير المسؤولية بعيداً عن البيت الأبيض والحكومة الفيدرالية.

تحولت واحدة من أسوأ الكوارث في تاريخ أمتنا، إلى واحدة من أسوأ الكوارث بالنسبة إلى رئاسـة بوش. فقد حدد إعصار كاترينا والطريقة الخرقاء التي تعاملت بها الحكومة الفيدراليـة مع هذا الأمر سمـة المرحلة الثانية من ولاية بوش. وقد أصبح الموقف من هذه الكارثـة أكثر سوءاً عندما يقارن بقـرارات سابقة اتخذها الرئيس بوش، بما في ذلك أولاً وقبل كل شيء، إخفاقه في أن يكون منفتحاً وصريحاً بشأن العراق، واندفاعه نحو الحرب بخطط مبتورة، واستعدادات غير كافية لمرحلة ما بعد هذه الحرب.

أدى العنف المستمر في العراق – التفجيرات الانتحارية، والمتفجرات اليدوية الصنع، ونـيران القناصـة، والخسائر البشريـة اليومية في صفوف الجنـود الأمريكيين – إلى التسبـب في فقدان الأمل لدى الكثيرين، وظهـور تحفظات عميقة حول الجهد المبذول لمرحلة ما بعد الغزو. لقد بدأ القصور والعمى في الرؤية اللذان تجليا في الطريقة التي

تعاملت فيها هذه الإدارة مع إعصار كاترينا بالتحول إلى عدسة سيختبر عن طريقها الكثيرمـن الأمريكيـين، وخصوصاً المستقلين منهم، والمؤيديـن للحرب من بين أولئك الذيـن يقفون في الوسـط، الطريقة التي أدار فيها بوش وإدارتـه العراق في مرحلة ما بعد صدام.

obeikandl.com